## فقه البيئة في الإسلام[1]

**مصطفى أبو صوي**

يهدف هذا البحث إلى بلورة تصور لفقه بيئة إسلامي، وفق معارف الوحي والتراث الإسلامي الذي يحمل في طياته التجربة الإسلامية والتطبيق العملي للآيات والأحاديث، ومن ثم الآثار التي تدفع بالمسلم إلى علاقة إيجابية فاعلة مع البيئة. وينظر البحث أيضا في طبيعة العلاقة بين وظيفة الإنسان الأساسية، وهي العبودية لله –عز وجل–، والإيمان من جهة، والبيئة من جهة أخرى، كما سيبحث في الأدوار التي تلعبها البيئة عدا كونها "الموطن" الذي يدور الإنسان ويتنعم فيه.

ثم يستعرض البحث التصور الإسلامي لحماية مكونات البيئة، كل على حدة، ويخلص إلى طرح جديد في باب مقاصد الشريعة فيما يتعلق بالبيئة.

### دوائر العلاقة بين الإنسان والبيئة (الاستخلاف والتسخير والإعمار).

### ١. الاستخلاف

إن نظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة، والتي تنبثق من معارف الوحي، تبين أن الإنسان مستخلف في الأرض من قبل أن يطأها، وذلك في قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ."[٢]

وهذه الخلافة في الأرض يترتب عليها مسؤولية جسيمة، فهي امتحان يتبعه حساب، ومن ثم ثواب أو عقاب، وقد وردت هذه المعاني في القرآن والسنة، فالابتلاء المرتبط بالخلافة في الأرض نجده في قوله –عز وجل–: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ."[٣]

وكذلك نجد أن هذه الخلافة تخضع بالإضافة للمعاني السابقة للمراقبة:

"ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ."[٤]

كما تتكرر هذه المعاني في قول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء." [٥]

ومن الواضح، بناء على ما تقدم، أن التصور الإسلامي يدل على أن الخلافة في الأرض تتضمن امتحانا فيما استخلف الإنسان فيه، وإذا ما سيتعامل مع هذه البيئة بحسب التوجيه الرّباني، أم سيحيد عن الطريق و "**يفسد في الأرض**"؛ تلويثا للبيئة على جميع المستويات، وبالتالي تؤول الخلافة إلى قوم أو جيل جديد.

إن إحلال قوم بدل قوم آخرين يظهر جليا في الآيتين التاليتين:

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ."[٦] وَ "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ." [٧]

وإذا ما أضفنا إلى إعلام رب العالمين للملائكة باستخلاف الإنسان، أنه سبحانه وتعالى ذكر تعليمه لآدم أسماء الأشياء: "**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**".[٨]

تبين لنا أن العلم هنا حجة على الإنسان فقد استخلفه الله جل شأنه وبين له وظائف الأشياء، وكما قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها"[٩].

فتكون الخلافة في الأرض عن علم ومعرفة بحقائق الأشياء، فيقع على كاهل الإنسان بموجبها العناية بمحيطه والرفق بالبيئة التي يدور في رحابها، ويتنفس هواءها ويشرب ماءها ويأكل من أقوات قدرت فيها، فلا يسرف ولا يهلك، فالله -سبحانه وتعالى- خلقه معمرا لا مخربا، وبانيا لا هادما، ومصلحا لا مفسدا.

**٢. التسخير**

أما تسخير الأشياء لخدمة الإنسان فدائرته واسعة، وهي تتضمن بداخلها دائرة أصغر هي دائرة البيئة المباشرة، ونكتفي بذكر ثلاث آيات للدلالة على ما ذكرناه:

"وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ."١٠

"أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ."١١

"وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ."١٢

وقد بينت بعض الآيات الأخرى طبيعة التسخير المؤقتة في إشارة إلى البعد الأخروي:

"وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى".١٣

وأما تسخير البيئة على وجه الخصوص، فبالإضافة إلى كونها داخلة في الدائرة الأوسع للتسخير، هنالك آيات يزخر القرآن بها تدل على تسخير عناصر من البيئة:

"وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ."١٤

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ."١٥

"لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ."١٦

"فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ."١٧

"وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ."١٨

إن كل ما سبق من الآيات يدل على تسخير السموات والأرض، والبحار والأنهار، والرياح والدواب والأنعام من أجل الإنسان، فيما يعد دعامة للاستخلاف، ورافدا يعينه ويقويه على أداء وظيفته الأساس، وهي العبودية لله كما سنبين لاحقا.

**٣. الإعمار**

إن ثالث دائرة من دوائر العلاقة مع البيئة تتعلق بإعمار الأرض، قال تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا".[١٩]

وهذه الآية تشكل تذكيرا بفضل الله الكريم الوهاب على الإنسان، ومن ثم طلب الله عز وجل منه أن يقوم بعمارة الأرض، فالسين والتاء في اللغة العربية تفيدان الطلب، وهذا التذكير جاء في خطاب صالح -عليه السلام- لثمود يطالبهم بعبادة الله وحده وهو مطلب جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا سياق لطيف ربط بين توحيد الألوهية والربوبية وعمارة الأرض:

"وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ."[٢٠]

ويبين القرآن الكريم أن عمارة الأرض في حد ذاتها، وبمعزل عن المنهاج الرباني ورفضه، سيؤدي لا محالة إلى الهلاك: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ."[٢١]

وعمارة الأرض تكون بما ينفع الناس وليس بما يضرهم، وبما لا يؤثر سلبا في البيئة.

**دور الإنسان (العبودية) والبيئة**

إن الدور الأساس للإنسان في هذه الحياة هو العبودية لله سبحانه وتعالى:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ."[٢٢]

ومفهوم العبودية هنا شامل لكل جوانب الحياه، فكما أن أداء ما افترضه الله علينا من صلاة وصيام وزكاة وحج يدل على العبودية، فإنّ كل ما يمكن أن يفعله الإنسان ضمن التّصور الإسلامي ما دام لله للإنسان والكون والحياة هو أيضا يدل على العبودية، وينسجم مع مفهوم العبودية.

إن هذه الأفكار تنبع من عدم وجود فصل في الإسلام بين الدين والدنيا، فالدنيا مزرعة الآخرة. ومن هنا، فإن الرفق بالبيئة وعدم تلويث أو إفساد أي جزء منها، حينما يكون لله، فإن ذلك مما لاشك فيه باب من أبواب الأجر، ويتفق تماما مع الإسلام نصا وروحا.

**البيئة محل آيات الله عز وجل**

لقد نبه الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى أن البيئة مليئة بالآيات الدالة عليه، فكما أن هناك آيات في الكتاب المسطور، هناك آيات في الكتاب المنظور:

"إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ."[٢٣]

ومن هنا فإنّ حماية البيئة هي حماية لآيات الله –عزّ وجلّ–، وتدمير البيئة هو تدمير لها، ففي كل مرة يؤدي سلوك الإنسان أو ما ينتج عنه (التلوث على سبيل المثال) إلى انقراض نبات أو حيوان، فإنّما يعني انقراض آية دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى.

وكذلك فإن كل ما في هذه البيئة يشارك في ذكر الله وتسبيحه:

"تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا."[٢٤]

وهنالك آيات عديدة شاهدة على تسبيح بعض مخلوقات الله –عز وجل–، منها: "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ".[٢٥]

"وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ".[٢٦]

"وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ".[٢٧]

وكما قلنا أن تدمير أي من مخلوقات الله –عز وجل– هو تدمير لآية دالة عليه، فكذلك أيضا هو تدمير لآية تسبحه، وعليه، فإن على الذين يقومون على التخطيط البيئي أخذ هاتين الدلالتين بعين الاعتبار.

ولعل أرباب القلوب يستحضرون على الدوام دلالة المخلوق على الخالق، فقد وجدت كلاما لطيفا في هذا الباب لسعيد النورسي –رحمه الله–، يدل على الشفافية والحس المرهف:

إن للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته سكة خاصة بمن هو خالق كل شيء. وعلى كل مخلوق من مخلوقاته خاتم خاص بمن هو صانع كل شيء. وعلى كل منشور من مكتوبات قدرته طرة غراء لا تقلد خاص بسلطان الأزل والأبد. [٢٨]

## القسم الرباني ببعض مكونات البيئة

إن مما لا شك فيه أن قسم الله -عز وجل- ببعض مخلوقاته هو إشارة إلى عظم الآيات الدالة عليه سبحانه، وكما قال ربّ العزة:

**"فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ."** [٢٩]

ولنتأمل قسم الله -عز وجل- بشجرتين مباركتين: **"وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ."** [٣٠]، حيث أن الواو في الآية هنا هي واو القسم، وسواء كان القسم بالشجرتين لذاتهما أو للدلالة على الأرض المقدسة، فقد تم تشريفهما بالقسم، وللمقارنة فإنّ (إنجيل متّى) يذكر قصة يقوم المسيح -عليه السلام- فيها بلعن شجرة تين، والسبب أنه كان جائعا ولم يجد عليها ثمرًا إذ أراد أن يأكل، فلعنها، فتيبست:

"وفي الصبح اذ كان راجعا الى المدينة جاع" [٣١]

"فنظر شجرة تين على الطريق وجاء اليها فلم يجد فيها شيئا الا ورقا فقط فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الابد فيبست التينة في الحال." [٣٢]

## أثر الإيمان على البيئة

لقد كفل الله -جل وعلا- رزق البشر ولم يطالبهم إلّا بتوحيده وإفراده بالعبودية:

**"الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ."** [٣٣]

فالمطلوب إذا عبادة الله سبحانه وتعالى، فإذا ما فعل الإنسان ذلك وأناب إلى الله فإن الخير سيزداد، وقد ربطت آيات القرآن الكريم بين حسن عبادة المرء والإنابة إلى الله، وبين التغير الإيجابي في البيئة وذلك في قوله تعالى:

"وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا." [٣٤]

وكذلك الثبات على الطريق القويم:

"وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا." [٣٥]

وعكس الإيمان، وهو الكفر والجحود، سيؤدي لا محالة إلى معيشة ضنكا:

"وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا." [٣٦]

ومما لاشك فيه أن سلوك الناس الكفري يؤدي إلى الكوارث الطبيعية:

"فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ." [٣٧]

"كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ." [٣٨]

"أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا." [٣٩]

ففي هذه الآيات السابقة دليل قاطع على ارتباط الأعاصير والزلازل بابتعادهم عن الله –عز وجل–، وأنها مرتبطة بمشيئته، وهنالك نوع آخر من الكوارث ارتبط بكفر الإنسان، ألا وهو الفيضانات، ففي قصة نوح –عليه السلام– ربط واضح بين الطوفان والكفر:

"حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ." [٤٠]

وفي المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف عن الرجلين صاحبي الجنتين عبرة، فبستاناهما كانا مثمرين، ولكن سوء خلق أحدهما وتكبره، وعدم ربط صلاح بستانه بمشيئة الله، أدى إلى هلاك ثمره:

"وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا." [٤١]

وكقاعدة عامة هناك ارتباط بين عمل الناس السيِّئ والمصائب بكافة أشكالها:

"وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ." [٤٢]

وأيضا فإن اقتراف الإثم يؤدي إلى ظهور الفساد: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ."[٤٣]

والفساد هنا اسم جامع للفساد المعنوي والمادي الذي يؤدي إلى دمار البيئة وخرابها، ولكن الحمد لله الذي لم يعجل العذاب دائما، ولو كانت العقوبة مباشرة لما ظلّ هنالك حياة على وجه البسيطة:

"وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ."[٤٤]

ولعل في سورة النحل شاهد آخر على مجريات الأمور:

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ".[٤٥]

فعدم شكر الله على أنعمه أدى إلى ذهابها، فالجوع هنا دليل على أن أمرا ربانيا أوقف عمل المنظومة البيئية بسبب كفر الناس، وكان يمكن لهذا الموقف أن يكون معكوسا لو أنهم شكروا الله فيزدادوا من الخير "لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ."[٤٦]

وهذه الآية دليل على أن السلوك الإيجابي المنسجم مع التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة يؤدي إلى زيادة تفعيل عطاء البيئة بأمر رب العالمين.

**حماية الإسلام للبيئة**

فيما يلي نستعرض مواقف الإسلام من مكونات البيئة التي تتكون من الإنسان والحيوان والنبات والأرض والماء والهواء.

**الإنسان**

على الرغم من اختلاف وجهات النظر حول إدخال الإنسان في إطار البيئة، فإن هذا البحث يعتبره منها، ولو كانت باقي أجزاء البيئة مسخرة له، ومكانته أعلى منها.

دعا الإسلام إلى حماية الإنسان وما يتعلق به، وتتجلى هذه الدعوة في مقاصد الشريعة والتي حصرها معظم العلماء حتى الآن في خمس هي: حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

بين الإسلام حرمة الإنسان وأن من قتل نفسا بغير حق عامدا متعمدا فكأنما قتل الناس جميعا:

**"مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا".**[٤٧]

**الحيوان**

لقد حرص الإسلام على العلاقة السليمة مع الحيوان فحض المسلم على حسن معاملته ولم يجز قتله إلا لأكله ولهذا شروط وآداب، وأجاز في دائرة ضيقة قتل بعض الحيوان للضرر الذي قد يترتب على إبقائه حيا.

ففي دائرة ما يذبح للأكل، حث الشارع على استخدام أداة حادة حتى لا تتعذب الذبيحة، فعن شداد بن أوس أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:

" إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتله، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته."[٤٨]

بل ذهب الإسلام إلى أبعد من هذا، حيث ضرب مثالا رائعا في رعاية نفسية الحيوان حين أمر بإخفاء آلة الذبح عن الحيوان، فقد روى الإمام أحمد عن عمر أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمر أن تحدّ الشفار وأن توارى عن البهائم.

وفي هذا المعنى عن ابن عباس أن رجلا أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

"أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟"[٤٩]

وحماية الإسلام للحيوان تتعدى إلى الصيد، فهو وإن كان في الأصل مباحًا، قد يصل إلى درجة التحريم باعتبار الظرف المحيط به، قال ابن تيمية: "والصيد لحاجة جائز وأما الصيد الذي ليس فيه إلا اللهو واللعب فمكروه وإن كان فيه ظلم للناس بالعدوان على زرعهم وأموالهم فحرام." [٥٠]

فعن ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في سفر، فانطلق لحاجة، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: "من فجع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها".[٥١]

ولا يستهين الإنسان بصغر ما يقتل، فعن عبدالله بن عمرو، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها – بغير حقها – إلا يسأله الله عنها يوم القيامة قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي به."[٥٢]

وروى أحمد والنسائي وابن حبان من حديث الشريد رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول:

"من قتل عصفورا عبثا، عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يارب! إن فلانا قتلني عبثا، ولم يقتلني منفعة–. [٥٣]

وأما عن صيد الحيوان الذي لا يؤكل لحمه مثل السباع، وذلك من أجل فرائها على سبيل المثال، فقد نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن افتراش جلود النمور، فعن معاوية رضي الله عنه أنه قال: "لا تركبوا الخز ولا النمار".[٥٤]

ولا يخفى أن ركوب الخز (الحرير) فيه إسراف ومضيعة وهكذا ركوب جلود النمور والسباع، فهذا الحديث أصل في حماية هذا النوع من الحيوان حيث أن النمور الآسيوية عرضة للانقراض بسبب الاعتقاد الخاطىء بأن لأجزائها مفعولًا قويًّا كدواء: وهذا من باب الخزعبلات والشعوذة المنتشرة في الثقافة الصينية.

ويقاس على هذا النهي قتل الفيلة من أجل أنيابها؛ لأنّ العاج يستخدم في بعض صناعات الزينة، بل كثيرا ما يصنع منه "آلهة" تعبد!

وأما صبر الحيوان ورميه فحرام، فعن ابن عمر أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا، أو دجاجة يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا! إن الرّسول –صلى الله عليه وسلم– لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا.[٥٥]

وأما قتل الحيوان إفسادا، فمما لا شك فيه أنه حرام وعاقبته وخيمة فعن ابن عمر، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من حشائش الأرض". رواه البخاري[٥٦]

وقد ورد ضمن وصايا أبي بكر السابقة النهي عن قتل الحيوان خلال الحروب من باب العقوبة الجماعية لإيقاع الأذى بمعسكر الأعداء.

والنهي عن إيذاء الحيوان يتضمن عدم الضرب والكي في الوجه فعن جابر: نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه[٥٧]. وإذا أمكن الاستعاضة عن الوسم بإسورة إلكترونية أو أصباغ غير سامّة فهو أفضل.

وكذلك فإن دفع الحيوانات للاقتتال بقصد التمتع بمشاهدتها، يعد نوعا من السادية، وقد نهى الإسلام عنه، فعن ابن عباس، قال: نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن التحريش بين البهائم[٥٨].

وقد اتسعت دائرة حماية الحيوان في الإسلام لتشمل النهي عن إثقال الحمل عليها، فعن سهل ابن الحنظلية، قال: مر الرّسول –صلى الله عليه وسلم– ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: "إتقوا الله في هذه البهائم المعجمة: فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة". وفي رواية ابن حبان لهذا الحديث: "اركبوها صحاحا وكلوها سمانا." [٥٩]

وقد ساق يوسف القرضاوي تعليق ابن حبان على قوله –صلى الله عليه وسلم–: "اركبوها صحاحا" فدل ذلك على : "أن الناقة العجفاء الضعيفة يجب أن يتجنب ركوبها إلى أن تصح".[٦٠]

وليس أكمل من الإسلام الذي جعل صدقة التطوع شاملة "لإغاثة الملهوف من العباد والمخلوقات التي أمرنا الله بالإحسان إليهم".[٦١]

وقد اعتبر ابن تيمية أن الإحسان إلى البهائم عبادة[٦٢]. وهذا يتفق مع قوله –صلى الله عليه وسلم–: "في كل ذات كبد رطبة أجر".

وقد امتلأت كتب الفقه بالمساجلات والأحكام التي ترعى الحيوان بما يطول شرحه، وليس هذا بمستبعد على دين يقوم أحد أنبيائه ورسله بتحويل مسيرة جيش حتى لا يهدموا بيت النمل، قال تعالى: **"حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نمله يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين."**[٦٣]

وهذا يتوافق مع هدي الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن النبي –صلى الله عليه وسلم– نهى عن قتل أربع من الدواب: "النملة والنحلة والهدهد والصُرَد".

بل في قصة نوح عليه السلام ما يدل على الرعاية للحيوان والحرص عليه أن ينقرض، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نوحا –عليه السلام– ببناء السفينة، ثمّ قبل الطوفان، أمره أن يجعل فيها من الحيوان ما يحفظه من الانقراض: **"قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين"**.[٦٤]

وكأني بهذه القصة تعلم الإنسان أن يحافظ على الحيوان، فحين يرسم السياسات البيئية عليه أخذ هذا بعين الإعتبار.

وينبغي أن ننوه إلى أن رعاية الحيوان في الإسلام وإن كانت تشمل الغالبية العظمى من الحيوان، إلا أن بعضها قد استثني، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنهما أن

الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال: "خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحرم: الغراب والحِدأة والعقرب والفأر والكلب العقور".[٦٥]

ولا يخفى أن في هذا الحديث حكمة بالغة فيها حفظ للبيئة فالكلب العقور قد يحمل داء الكلب وغيره من الأمراض، والفئران تشكل خطرا صحيا وتهدد المحاصيل الزراعية، ولعله يمكن القياس عليها من ناحية الضرر الذي تسببه.

ونجد في هذا الحديث أن الحيوان الوحيد الذي لم يكن هنالك تعميم بشأنه هو الكلب، فالذي يقتل هو الذي يتسبب في الضرر، وهذا الحديث يتفق مع حديث آخر لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي يقول فيه: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم."[٦٦]

وأما أن الحيوان أمة، فهذه حقيقة قررها القرآن الكريم: **"وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء."**[٦٧]

وإذا ما ذكّرنا بأن الحديث الذي يسمح بقتل الفواسق في الحرم، يحرم نباته وحيوانه، فصيد البر محرم على الحاج، وهكذا، فإن الإسلام كان سباقا لمفهوم "المحمية الطبيعية" ولكنها بأمر رب العالمين:"'يا **أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن إعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو إنتقام."**[٦٨]

**٤. حفظ النباتات**

دعا الإسلام إلى حفظ النباتات والأشجار بأن نهى عن قطعها فيما ليس فيه فائدة، وبحثه على زرعها لما فيها من الأجر.

فقد ورد معنا في وصايا أبوبكر الصديق نهيه عن قطع الشجر كأدب من آداب الحرب، فكيف بنا نجوز قطعها في السلم بغرض الإفساد أو فيما لا طائل تحته وخصيصا ما نراه اليوم من اتباع للغرب في قطع شجر السرو وإدخاله للبيوت وتزيينه في عيد الميلاد، كل هذا باسم المسيح –عليه السلام– والمسيح

منه براء، فعشرات الملايين من الأشجار تذهب هباء كلّ عام بسبب هذه العادة السيئة، والتي يصحبها في كثير من الأحيان الحرائق التي تنشب من وجود تماس كهربائي في حبال الزينة الكهربائية التي تلف الأشجار وتؤدي إلى مقتل كثير من الناس.

لقد ذكر (آلدن هنكلي) أنه من ناحية البيئة، فالمسيحية لديها أسوأ سجل "وحتى موقف ماركس في حثه الإنسان 'للسيطرة' على الطبيعة ومخلوقاتها، إنما هو صدى لتعاليم التوراة." [٦٩]

وللمقارنة مع الموقف السابق نسوق هذا الحديث الشريف: "من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار." [٧٠]

وشجرة السدر، تنبت في الصحاري فينتفع الناس بتفيؤ ظلالها والأكل من ثمارها، والوعيد بالنار لمن قطع سدرة واحدة يدل على أهمية الحفاظ على مقومات البيئة الطبيعية وحفظ التوازن بين المخلوقات وعدم الاعتداء عليها عبثا وظلما.[٧١]

فكيف بالأمطار الحمضية، والتي تنتج من تلويث الهواء وخصيصا المصانع والأليات التي تستخدم وقود البترول، وهي تقتل ملايين الأشجار.

لقد حض الإسلام على الزراعة واعتبرها بابا من أبواب الأجر، فعن جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ما من مسلم يغرس غرسا، إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة" رواه مسلم.

ومن هنا كانت قضية إحياء الأرض الموات وهي تدل على عدم جواز تعطيل الأرض بدون زراعة وإعطاءها لمن يزرعها، وفي ذلك تفصيل. وهذا فيه حث على التشجير ومحاربة للتصحر.

### ٥. حفظ الأرض

إنّ حفظ الأرض من التلوث تدل عليه الأحاديث التي تحث على نظافتها، فعن صالح بن أبي حسّان قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جوّاد يحب الجود فنظفوا (أراه قال): "أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود، قال فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار،

فقال: حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص عن ابيه عن النبي –صلى الله عليه وسلم– مثله، إلا أنه قال: نظفوا أفنيتكم"[٧٢]. فتنظيف الفنية هنا يشكل دعوة لتنظيف البيئة التي يعيش فيها المسلم من كل ما يلوثها.

ولكن يجب الحذر في وصف الغير، فكما أن المسلمين لا يوصفون بسلوك واحد في القضايا الاجتماعية، ويتأذون من الصور النمطية، فكذلك غيرهم، وقد تكون هنالك أسباب اقتصادية من خلف وجود النظافة أو عدمها.

وقد ربط الإسلام النظافة بالإيمان فجعلها قضية عقدية وهكذا الحديث:

"الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والجهاد شعبة من الإيمان." [٧٣]

فإماطة الأذى عن الطريق ما هو إلاّ تنظيف لعائق مادي أو نفايات صلبة، أو غير ذلك.

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "اتقوا اللاعنين: الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلتهم." [٧٤]

وقال أيضا: ''اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، (يعني موارد المياه) وقارعة الطريق، والظل.''[٧٥]

و 'التخلي' و 'البراز' في الحديثين السابقين يشيران الى تلويث الأرض والمياه، والنهي عن التلويث المباشر للإنسان يقاس عليه التلويث غير المباشر من خلال المجاري، وهذا يعني أنه لا بد من دفعها بعيدا عن مركز نشاط الإنسان، وأنه لا بد من معالجتها قبل أن تفرغ في إحدى الأماكن المعدة لذلك، والحفاظ على نظافة الأرض ليس من وظيفة الأفراد فقط، بل تقع ضمن مسؤولية الدولة أيضا، ففي الحديث عن أبي موسى، أنه قال حين قدم البصرة: بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم وسنتكم وأنظف طرقكم.

ومن الحفاظ على الأرض الحفاظ على الأرض الزراعية، وهنالك إشارة لطيفة في القرآن الكريم لاتخاذ الجبال الصخرية سكنا، وذلك في خطاب نبي الله صالح إلى قومه الذين كأنّهم وصلوا إلى أفضل ترتيب دنيوي، حيث تركوا الأرض السهليّة الخصبة للزروع والثمار، واتخذوا من الجبال بيوتا، ولم يبق عليهم إلا الإيمان بالله تعالى:

"أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ." [٧٦]

لو أن الحكومات مجتمعة حمت الأرض الزراعية، واستفادت من خيراتها، لسدت جوع الملايين من البشر، والقضية قضية سياسات وتخطيط مدن.

**٦ الحفاظ على المياه**

لقد كانت مشيئة الله أن جعل في الماء حياة لمخلوقاته الحيوية:

"وجعلنا من الماء كل شيء حي."[٧٧]

وهنالك عشرات الآيات التي نسب الله سبحانه وتعالى فيها نزول الماء الى نفسه:

"وينزل من السماء ماء".[٧٨]

"وأنزل من السماء ماء".[٧٩]

"فأنزلنا من السماء ماء"[٨٠].

"والله أنزل من السماء ماء".[٨١]

"ونزلنا من السماء ماء".[٨٢]

فهذه الآيات ومثيلاتها تدل على أهمية الماء وارتباطه بمشيئة الله –جل وعلا– وأنه يسبب نزوله، وبالتالي فكلّ مطر يشير إليه –سبحانه–، ويدعو إلى شكره، فيزداد الإنسان من الخير، كما ذكرنا سابقا في العلاقة بين الإيمان والبيئة.

وقد حثت السنة المطهرة على الحفاظ على الماء بحماية مصادره وترشيد استهلاكه، فلحماية مصادره، وكما ورد في الحديث السابق عن اتقاء الملاعن الثلاث، نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن التبرز في موارد المياه، وإذا كان تبرز الفرد في مصادر المياه أو بالقرب منها منهي عنه، والعلة هنا تلويثه لهذه المصادر المائية، فمن باب أولى أن لا تصل فضلات مجموعة كبيرة من الناس إلى هذه المصادر سواء عن طريق المجاري التي تصب مباشرة فيها، أو عن طريق التسرب في الحفر الامتصاصية إلى مصادر المياه الجوفية.

وكذلك فقد نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الاغتسال في الماء الراكد حتى لا يلوث فقال: "لا يغتسلنَّ أحدكم في الماء الدائم وهو جنب." [٨٣]

وفي ترشيد الاستهلاك، نجد كثيرا من الأحاديث تحض على عدم الإسراف في استخدام المياه، فقد "توضأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء." [٨٤]

وقال عليه الصلاة والسلام: "سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور." [٨٥]

وقد فهم العلماء هذا التوجيه، ودل كلامهم في هذا الباب على استمرارية ترشيد استهلاك المياه، بغض النظر عن كثرته، وهكذا نجد عند الإمام الغزالي، رحمة الله، دعوة عند الاستحمام للترشيد حيث قال: "وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة." [٨٦]

وفهم الغزالي هذا منبعه سلوك الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فقد توضأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "بمُد – حفنة"[٨٧] واغتسل بصاع وهو أربع آمداد (حفنات)[٨٨].

**حماية الهواء**

إنّ حماية الهواء من التلوث يستنبط من الأحاديث التي تنهى في ذلك الزمان عن الأنشطة التي تسبب الروائح الكريهة والتي تؤذي الناس، فإذا لم يكن بد من ذلك الفعل، فبعيدا عنهم. ولذلك كان قدوة البشرية جمعاء، محمد –صلى الله عليه وسلم–، إذا أراد قضاء حاجته توارى عن الأنظار، وابتعد عن

البيوت، والنّهي في الحديث السابق عن التخلي في طرق الناس وظلتهم. يستفاد منه النهي عن المناظر المؤذية والروائح الكريهة.

وليس أدل على هذا النوع من الحفاظ على نقاوة الهواء، من النهي عن ارتياد المساجد وقد أكل الواحد ثومًا أو بصلًا، ففي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يقربَن مسجدنا." [٨٩]

وعن جابر مرفوعا: "ومن أكل ثوماً أو بصلاً، فليعتزلنا - أو قال: فليعتزل مسجدنا - وليقعد في بيته." [٩٠]

وعن المغيرة بن شعبة مرفوعا: "ومن أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربنّ مصلانا، حتى يذهب ريحها." [٩١]

وفي معرض تعليقه على أكل البصل والثوم وما يترتب عليهما من إيذاء، قال د. يوسف القرضاوي:

وأولى بهذا الحرمان في عصرنا - من غير شك - من يتعاطى التدخين ويؤذي الناس به، فإن تلك البقول حلال في الأصل، أما التدخين فهو ضار صحيا ونفسيا واقتصاديا، فأولى الأحكام به التحريم.[٩٢]

**حماية الإنسان من التلوث الضوضائي**

بالإضافة إلى ما سبق فقد حرص الإسلام على نفسية الإنسان وصحته من خلال عدم تعريضه للأصوات المزعجة، فقد جاء في الحديث الشريف وصف للصوت المرتفع أنه رعونة وإيذاء.

وشبه القرآن الصوت المرتفع بصوت الحمير، ولذلك كانت وصية لقمان لابنه **"واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير."**[٩٣]

وإذا كانت الشريعة الغرّاء لا تسمح برفع الصوت بالقرآن في المساجد حتى لا ينزعج المصلون الآخرون والذين في حلقات العلم، فكيف بمصادر الصخب والضوضاء التي تنبعث من أبواق السيارات ومن أجهزة الصوت خلال السهرات والتي تتزاحم على أُذن السامع؟

**مقاصد الشريعة والبيئة**

لقد دأب العلماء المسلمون على حَصْر مقاصد الشريعة الكلية في خمس هي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

وقد قام شيح الزيتونة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٣) صاحب كتاب 'مقاصد الشريعة الإسلامية' بإضافة مقصدين هامين هما 'المساواة' و 'الحرية'.[٩٤]

وإذا ما استعرضنا المقاصد الخمسة، لوجدنا أن مقصد حفظ البيئة يمكن أن يكون مقصدا كليا، فلو تصورنا ابتداء، استمرار التلوث البيئي على هذه الوتيرة الخطرة فسنجد أنفسنا بعيدين كل البعد عن إمكانية استمرار الاستخلاف في الأرض وإعمارها وأداء وظيفة العبودية فيها، لأن استمرارية الجنس البشري يتهددها الخطر. وهذا الخطر يتعلق بحفظ الدين كما يتعلق بحفظ النفس، وكذلك الأمر بالنسبة لحفظ النسل، ليس في باب عدم اختلاط الأنساب، وإنما حفظه من أنواع التلوث التي تؤدي إلى العقم، أو الإجهاض، أو التشوهات الخلقية، أو الأمراض المزمنة.

وأما بالنسبة لحفظ العقل، فالذين جربوا العيش في المدن الصناعية الكبيرة، يعرفون تماما حالات الاكتئاب الشديد الذي يصيب الإنسان حينما يخرج من بيته ليعايش التلوث في أشد صورة، بل كثيرا ما تقوم الجهات الحكومية في هذه المدن بمنع الأطفال والعجائز والحيوانات 'المدللة' من الخروج حينما ترتفع نسبة التلوث في الهواء.

ومما لا شك فيه أن التلوث الضوضائي يؤثر سلبا على قدرة الإنسان على السمع، ويرهق أعصابه!

أما حفظ المال، فالحديث يدمر -هنا- عن حفظ المال بالنسبة للمجتمع ككل، وبالتالي سيصيب الفرد، إنّ التلوث البيئي يؤدي في النهاية إلى ضياع الموارد المائية وما فيها، فقد 'مات' عدد كبير من الأنهار والبحيرات في الغرب الصناعي بسبب الأمطار الحمضية وصب المجاري فيها ومخلفات المصانع، فمن كان ماله من الصيد في المياه العذبة فلا يمكن أن يحافظ عليه، وتلوث البحار، أي المياه

المالحة، في تسرب الزيوت النفطية إليها، يجعل الأسماك في المناطق الملوثة غير صالحة للاستهلاك البشري بسبب ارتفاع نسبة الزئبق فيها!

فدائرة البيئة واسعة يدخل فيها الإنسان والحيوان والنبات و 'مال' الإنسان ونسله، وكما ذكرنا، فهذه الدائرة محل كثير من آيات الله تعالى الدالة عليه، ومن هنا نجد أهمية الحفاظ عليها وبالتالي كونها من المقاصد الكلية للشريعة.

والوعي بهذا المقصد سيؤثر على وضع القوانين الخاصة بالبيئة لحمايتها، وبالتالي مساعدة القضاء في كيفية التعامل مع قضايا تلويثها.

وكما أن هذا المقصد سيؤثر على تصور مشروع النهضة الإسلامي الذي يراد له أن يتخطى سلبيات 'التقدم' المدني في النموذج الحضاري الغربي، وليكوّن الشهود الحضاري الإسلامي على النماذج الحضارية الأخرى وأهلها متميزا بالوسطية في العلاقة مع البيئة.

## مراجع


[١] قامت جامعة النجاح في فلسطين بنشر هذا البحث في صورته الأصلية ضمن أعمال مؤتمر البيئة عام ١٩٩٧.

[٢] سورة البقرة: ٣٠.

[٣] سورة الأنعام: ١٦٥.

[٤] سورة يونس: ١٤.

[٥] رواه مسلم.

[٦] سورة الأعراف: ٦٩.

[٧] سورة الأعراف: ٧٤.

[٨] سورة البقرة: ٣١.

[٩] تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٧، بيروت.

[١٠] سورة الجاثية: ١٣.

[١١] سورة لقمان: ٢٠.

[١٢] سورة النحل: ١٢.

[١٣] سورة الرعد: ٢.

[١٤] سورة النحل: ١٤.

[15] سورة إبراهيم: ٣٢.

[16] سورة الزخرف: ١٣.

[17] سورة ص: ٣٦.

[18] سورة الحج: ٣٦.

[19] سورة هود: ٦١.

[20] سورة هود: ٦١.

[21] سورة الروم: ٩.

[22] سورة الذاريات: ٥٦.

[23] سورة الجاثية: ٣-٥.

[24] سورة الإسراء: ٤٤.

[25] سورة الرعد: ١٣.

[26] سورة النور: ٤١.

[27] سورة الأنبياء: ٧٩.

[28] سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، تحقيق احسان قاسم الصالحي، ١٩٩٨، ص: ٥٣.

[29] سورة الواقعة: ٧٥-٧٦.

[30] سورة التين: ١.

[31] إنجيل متى: الإصحاح ٢١: ١٨.

[32] الإصحاح ٢١: ١٩.

[33] سورة البقرة: ٢٢.

[34] سورة هود: ٥٢.

[35] سورة الجن: ١٦.

[36] سورة طه: ١٢٤.

[37] سورة الإسراء: ٦٩.

[38] سورة آل عمران: ١١٧.

[39] سورة الإسراء: ٦٨.

[40] سورة هود: ٤٠.

[41] سورة الكهف: ٤٢.

[42] سورة الشورى: ٣٠.

[43] سورة الروم: ٤١.

٤٤ سورة فاطر: ٤٥.

٤٥ سورة النحل: ١١٢.

٤٦ سورة إبراهيم: ٧.

٤٧ سورة المائدة: ٣٢.

٤٨ رواه مسلم.

٤٩ رواه الحاكم، وقال صحيح على شرط البخاري.

٥٠ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٤، ص ٦١٩.

٥١ من حديث رواه ابو داود في الجهاد برقم ٢٦٥٧.

٥٢ من حديث رواه ابو داود في الجهاد برقم ٢٦٧٥.

٥٣ رواه النسائي ٧/٢٠٧ والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره: المنذري والذهبي.

٥٤ رواه أبو داود ٤١٢٩.

٥٥ (أي هدفا للرمي) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٢٧٩).

٥٦ رواه البخاري (٣١٤٠).

٥٧ رواه مسلم (٢١١٧).

٥٨ رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٦٢).

٥٩ رواه أبو داود (٢٥٤٨) وأحمد (٤:١٨٠، ١٨١) وابن حبان (الإحسان: ٥٤٥).

٦٠ القرضاوي: ص ٢٩٥.

٦١ إسماعيل الحسنى: نظرية المقاصد عند الأمام محمد الطاهر بن عاشور (المعهد العالمي للفكر الإسلامي: هيرندن، ١٩٩٥) ص ١٤٢.

٦٢ أحمد نوفل وآخرون: الثقافة الإسلامية ص ٨٥.

٦٣ سورة النمل: ١٨-١٩.

٦٤ سورة هود: ٤.

٦٥ رواه البخاري (٣١٣٦).

٦٦ رواه أبو داود ٢٨٤٥ والترمذي ١٤٨٩ والنسائي ٤٢٨٥ وابن ماجة ٣٢٠٤.

٦٧ سورة الأنعام: ٣٨.

٦٨ سورة المائدة: ٩٤-٩٥.

٦٩ Alden D. Hinckley, 1976, *Applied Ecology*, (New York: Macmillan), pp. 317 - 318.

٧٠ رواه الترمذي في كتاب الأدب من سننه – باب قطع السدر (٥٢٣٩) ورواه البيهقي في السنن، وذكره في صحيح الجامع الصغير (نقلا عن القرضاوي: 'السنة مصدرا للحضارة والمعرفة' ص ١٤٣).

[٧١] نفس المصدر ص ١٤٣ – ١٤٤.

[٧٢] رواه الترمذي في كتاب الأدب (٢٧٩٩) وقال: هذا حديث غريب، وقال الالباني في تخريج 'الحلال والحرام' أن له طريقا آخر عن سعد بإسناد حسن.

[٧٣] متفق عليه.

[٧٤] رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

[٧٥] رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن معاذ وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١١٢).

[٧٦] سورة الشعراء: ١٤٦–١٥٠.

[٧٧] سورة الأنبياء: ٣.

[٧٨] سورة الروم: ٢٤.

[٧٩] سورة إبراهيم: ٣٢.

[٨٠] سورة الحجر: ٢٢.

[٨١] سورة النحل: ٦٥.

[٨٢] سورة ق: ٩.

[٨٣] رواه مسلم.

[٨٤] أبو داود والنسائي واللفظ له، وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

[٨٥] أبو داود وابن ماجه وإبن حبان والحاكم من حديث عبدالله ابن مغفل.

[٨٦] الغزالي، إحياء علوم الدين ج ١، ص ١٣٩.

[٨٧] رواه الترمذي.

[٨٨] أبو بكر الجزائري منهاج المسلم، دار الشروق ط ١١، ١٩٩١، ص ٢٦٧.

[٨٩] اللؤلؤ والمرجان: ٣٣١ – ٣٣٢.

[٩٠] اللؤلؤ والمرجان ٣٣٣.

[٩١] رواه أحمد وأبو داود و إبن حبان، صحيح الجامع الصغير ٦٠٩٢.

[٩٢] السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ص ٢٨٦.

[٩٣] سورة لقمان: ١٩.

[٩٤] إسماعيل الحسني: نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص ١٦.